مسار المقاومة المسلحة بمنطقة الشلف

(1835-1847)

أ/ فارس العيد*

الملخص:

عقب احتلال مدينة الجزائر أصبحت السلطات الفرنسية تبحث عن توسيع مناطق نفوذها في الجزائر، فلجأت إلى تسيير حملات عسكرية في مختلف الاتجاهات، وكانت منطقة الشلف تحظى باهتمام بالغ من قبل الفرنسيين على اعتبار أنها نقطة ارتكاز أساسية لتوطيد أركان الاحتلال الفرنسي في الوسط الجزائري وكذا إعطاء الدعم اللازم لحملات العسكرية في منطقة الغرب. ومع بداية مقاومة الأمير عبد القادر أضحت هذه المنطقة بمثابة ركيزة متقدمة لقوات المقاومة ضد التوسع الفرنسي في الوسط الجزائري، ولذلك أولى الأمير اهتماما خاصا بهذه المنطقة من خلال استحداثها كمقاطعة ثالثة.

Abstract :

The Bath of the armed resistance in Chlef (1835-1847)

Following the occupation of Algiers City, French authorities began to search for optimal ways to occupy throughout Algeria, they Resorted to conduct military campaigns in different directions.

Chlef area was very important for the French because it's a Focal point to the French occupation in the middle of Algeria, as well as give the necessary support for the military campaigns in the West region. With the beginning of Emir Abdelkader resistance this region become a advanced military zone against the French expansion in the middle of Algeria.

* - أستاذ باحث بقسم التاريخ، جامعة حسيبة بن بوعلي،الشلف، الجزائر.

مقدمة:

عقب احتلال مدينة الجزائر أصبحت السلطات الفرنسية تبحث عن توسيع مناطق نفوذها في الجزائر ، فلجأت إلى تسيير حملات عسكرية في مختلف الاتجاهات، وكانت منطقة الشلف تحظى باهتمام بالغ من قبل الفرنسيين على اعتبار أنها نقطة ارتكاز أساسية لتوطيد أركان الاحتلال الفرنسي في الوسط الجزائري وكذا إعطاء الدعم اللازم لحملات العسكرية في منطقة الغرب. ومع بداية مقاومة الأمير عبد القادر أضحت هذه المنطقة بمثابة ركيزة متقدمة لقوات المقاومة ضد التوسع الفرنسي في الوسط الجزائري ، ولذلك أولى الأمير اهتماما خاصا بهذه المنطقة من خلال استحداثها كمقاطعة ثالثة .

1-أوضاع منطقة الشلف مابين 1830- 1835م:

دخلت منطقة الشلف خلال فترة ما بعد احتلال مدينة الجزائر في جويلية 1830م في حالة من الفوضى والاضطرابات كباقي مناطق الجزائ ، نتيجة لانهيار الجهاز السياسي والإداري العثماني[1]، فقد وقع الداي حسين وثيقة الاستسلام مع قائد الحملة الفرنسية ديبورمون[2]، كما أن باي التيطري بومرزاق كان قد أذعن للسلطات الفرنسية في 8 جويلية 1830م، ولكنه سرعان ما ثار على السلطات الفرنسية غير أن ثورته هذه أخمدت من قبل كلوزال فاستسلم هو الأخر[3]، أما باي حسان في بايلك الغرب الجزائري فكان شيخ كبير في السن سرعان ما استسلم الى الغزاة في سنة 1831م[4].

أصبحت الجزائر خلال هذه الفترة ميدانا للإطماع المغربية والتونسية، فقد حاول السلطان عبد الرحمن ملك المغرب ضم اكبر مساحة ممكنة من الجزائر، وقد كانت منطقة الشلف من المناطق التي وصلتها اطماع الملك المغربي، فبعد تعيين محمد بن الحمري وال على المناطق الداخلة تحت حكم السلطان مولاي عبد الرحمان في الجزائر

أرسل هذا الولي الحاج المعطي الى المدية والحاج الشريف إلى مليانة بمنطقة حوض الشلف لوضع المنطقة تحت السيطرة المغربية[5].

أصبح اغلب أعيان القبائل الجزائرية التي أعلنت دخولها تحت سلطة الملك المغربي ترى في السلطان المغربي مولاي عبد الرحمن باحثا عن الثروة و الأموال عوضا عن مواجهة أعداء المسلمين، ولذلك نجد هذه القبائل قد حاصرت قوات محمد الحمري بمعسكر، ورفضت تأدية ما كان يطلبه منها من ضرائب[6]، إضافة إلى ذلك أخذت السلطات الفرنسية تمارس ضغطا على السلطان المغربي ببعثها لسفينتين حربيتين إلى ساحل مدينة طنجة المغربية في 18 نوفمبر 1831، كما قام الملك الفرنسي" لوي فيليب" بإرسال الكونت شارل دومولي سفيرا فوق العادة إلى السلطات المغربية محملا بمذكرة مفادها تهديد شديد اللهجة[7]، ونزولا عند هذه التهديدات الفرنسية قام السلطان المغربي بسحب قواته من الجزائر في 22 مارس 1832م[8].

وبعد انعقاد البيعة للأمير عبد القادر الذي كانت مآثره في المعارك التي قادها ابوه الشيخ محي الدين ضد القوات الفرنسية بوهران قد وصلت الى معظم انحاء الجزائر، بادر أعيان منطقة حوض الشلف إلى مبايعته في فبراير 1833م واعترفت اغلب قبائل حوض الشلف كبني مناصر وبني مناد بسلطته، وقد دعا أعيان المنطقة الأمير عبد القادر لزيارتهم لإشاعة الأمن والسلم بالمنطقة فاستغل الأمير الفرصة لضم مناطق جد إستراتيجية لمواجهة المحتل الفرنسي[9].

قام الأمير عبد القادر في سنة 1835م على رأس قوات قليلة العدد بالتوجه نحو الشرق، وفي طريقه أخذ يعمل على إشاعة الأمن في المنطقة بالقضاء على الخارجين عن السلطة التي اختارها اغلب الجزائريين، فهزم في طريقه هذه الحاج السعيد بوادي مينا ،ثم

هزم شيخي المخزن سابقا اباعبد الله و العريبي وقبيلة صبيح بالشلف بعدما عاثا فسادا في المنطقة وكان ذلك في 15 أفريل 1835م[10].

خلال مسيرة الأمير هذه استقبلته قبائل عدة بالترحاب الكبير، وانضم العديد من أفرادها إلى صفوف قوات المقاومة الوطنية المنظمة ومن هؤلاء نذكر أولاد قصير وأولاد السايح، ومن أعيان المنطقة الذين كانوا على رأس المستقبلين للأمير عبد القادر بالمنطقة نذكر الشيخ البغدادي شيخ العطاف وكذا الحاج محي الدين إضافة إلى أعيان قبائل حجوط وموزاية وسماتة وغيرهم[11]، وفي 15 ماي وصل الأمير عبد القادر إلى منطقة بوخرشوفة التي استقبله فيها أهل مليانة بحفاوة كبيرة، ومن هناك اتجه لمواجهة أبو موسى المدعو ابو حمارة الذي خرج على نفر من أتباعه لمقاتلة الأمير فهزم من أول مواجهة معه في منطقة حوش عمورة بالجندل، ثم مضى الأمير إلى المدية حيث عين في 25ماي محمد بن عيسى البركاني كخليفة عليها، وفي 9جوان عاد الأمير الى ضواحي مليانة وفي منطقة بوحلوان رسم الأمير عبد القادر محمد بن محي الدين الصغير[12] خليفة على مليانة التي ضمت معظم منطقة حوض الشلف[13].

2- المقاومة المسلحة تحت قيادة الخليفة محمد بن محي الدين الصغير (1835-1837)

خلال الفترة الممتدة ما بين ماي 1835م و1837م قاد المقاومة المسلحة بالمنطقة الخليفة محمد بن محي الدين الصغير الذي ينحدر من ذرية "سيدي علي المبارك"، ولقب ب"الصغير" لتمييزه من "محي الدين" اخر سبقه من نفس السلالة، وتاريخ ولادته غير معروف بالتحديد لكن الفرنسيين عند اتصالهم به ذكروا انه في سنة 1832م كان في الثانية و الأربعين أو الثالثة والأربعين من عمره وعلى هذا تكون ولادته بين سنة 1789 وسنة 1890 وحياته قبل الاتصال بالفرنسيين[14] مجهولة والغالب انه قضى

طفولته وصباه في زاوية أسلافه بالقليعة حيث تلقى تعليمه الديني[15] .

بعد تعيين الأمير عبد القادر لمحي الدين كخليفة له على مقاطعة مليانة في شهر ماي 1835م، قام هذا الأخير بنشاط ملحوظ لدعم المقاومة الوطنية، حيث شدد الحصار على العاصم، فكان لا يتسامح مع من يعقد علاقات مع الفرنسيين، فقد اصدر حكم الإعدام على "علي الخز ناجي" قائد" بني موسى" لدخوله تحت سلطة الفرنسيين وذلك يوم 21 اوت 1835م[16]، كما ألقى القبض في شهر سبتمبر على" ابن الغضبان الحضري " بمليانة بعد إقرار هذا الأخير بأنه كان قد عزم على سم الأمير والخليفة[17]، كما قام بتنظيم البليدة التي كانت تابعة الى الأمير نظريا، فعين على إدارتها شؤونها السيد "سي البشير" الذي كان قائدا على قبيلة "المرجة" قرب" بوفاريك"[18]، إضافة الى ذلك فقد تحدى الخليفة محمد بن محي الدين الصغير كلوزيل عندما قام هذا الاخير بتعين"محمد بن الحسين" بايا فرنسيا على المدية، حيث قام الخليفة بدخول المدية وإلقاء القبض على الباي المذكور وسيره مكبلا الى مقر الأمير عبد القادر الذي كان بوادي التافنة، ثم قام في ماي1836م بمعاقبة كراغلة المدية الذين انضموا الى الفرنسيين فألقى القبض على خمسة من أعيانهم وانتزع من البقية كل ما كانت فرنسا قد أمدتهم به من سلاح ولوازم الحرب[19] .

قام الخليفة محي الدين بدور فعال في توسيع المقاومة الوطنية في هذه المنطقة الجد استراتيجية لمواجهة وصد التوسع الفرنسي، كما أنه أعطى للمقاومة بعدا وطنيا كان جد ضروري لتوحيد جهود الجزائريين ضد المشروع الاستعماري الفرنسي، وقد بقي الخليفة محي الدين وفيا للأمير ولقضية وطنه ولازم منصبه ووظيفته الى يوم وفاته يوم14جوان1837عن سن يناهز 48 سنة[20]، للتواصل المقاومة المسلحة بعده تحت قيادة الخليفة محمد بن علال.

3- أوضاع المنطقة تحت امرة الخليفة محمد بن علال (1837-1840)

ولد محمد بن علال بن حملام بالقليعة سنة 1810 م،وهو ينتمي إلى عائلة اشتهرت بالعلم[21]، فقد كان جده سيدي علي المبارك والي صالح بمدينة مليانة كان له خمسة أبناء من بينهم محمد بن علال، وقد أسس زاوية لتعليم الطلبة مبادئ القرآن والتوحيد والفقه فاكتسبت المدينة سمعة مشرفة[22]، ومن الصفات التي اتسم بها الخليفة بن علال أنه كان صارما في قراراته ومتمرسا في الشؤون العسكرية كما كان رجلا مشهودا له بالصلاح والاستقامة[23].

أدى الخليفة محمد بن علال دورا هاما في المقاومة المسلحة حيث قام بتوحيد صفوف أغلب قبائل منطقة حوض الشلف تحت راية المقاومة الوطنية، كما أنه تولى بناء حصن تازة[24] الذي يعتبر أحد الحصون العسكرية الهامة فقد كان يعتبر قاعدة عسكرية وتموينية إستراتيجية لقوات المقاومة ، كما أسس مصنعا للبنادق وآخر لإنتاج البارود بمليانة[25]، كما حرص على الأمن بالمقاطعة تطبيقا للعدالة التي ألح الأمير عبد القادر على توفيرها، حيث راسل بن علال الماريشال "فالي" في عدة رسائل تعالج مسائل متعلقة، بتوفير الأمن والعدالة بالمقاطعة[26].

إضافة إلى ما سبق فقد قاد الخليفة بن علال قوات المقاومة المسلحة ضد المستعمر الفرنسي في معارك عدة عقب نقض اتفاقية التافنا، حيث خاض بعض هذه المعارك إلى جانب الأمير عبد القادر وبعضها الآخر كان يقود فيها قوات المقاومة مع مساعديه،وقد كانت هذه المعارك التي شهدتها منطقة حوض الشلف ذات انعكاسات كبيرة على المقاومة الوطنية.

4- نماذج من المعارك التي خاضها بن علال ضد قوت الاحتلال الفرنسي بالمنطقة:

أ- معركة غابة كرزازة العفرون 27 أفريل 1840 م:

لقد كان الأمير مقتنعا أن معاهدة التافنا ما هي إلا مناورة دبلوماسية حاول الاستفادة منها الى أقصى حد ممكن لتقوية المقاومة المسلحة، لمواجهة القوات الفرنسية التي كان يدرك أنها مقبلة عل احتلال الجزائر كاملة[27]، وبدأت بوادر نقض اتفاقية معاهدة التافنا بمسير الوالي العام والدوق اورلين من قسنطينة الى الجزائر عبر مضيق البيبان (أبواب الحديد) في 02 أكتوبر 1839م، ولما علم الأمير بهدا الاختراق اعتبره إعلان الحرب، فأصدر الأوامر إلى خلفائه للتأهب للحرب بعدما أطلعهم على نقض الفرنسيين للاتفاقية، ثم اتجه الأمير نحو المدية التي وصلها يوم 4 نوفمبر[28]، وفي 19 نوفمبر 1839م أصدر المجلس الذي عقده الأمير في بوخرشوفة بيانا أعلن فيه حالة الحرب[29]، وكانت العمليات العسكرية قد ابتدأتها قبيلة الحجوط في 19 نوفمبر بنصب كمين للقوات الفرنسية قرب مدينة مليانة، كما تمت مهاجمة قوات الجنرال روسطولان بضواحي البليدة[30]، ثم توالت العمليات العسكرية في سهل متيجة خلال شهر نوفمبر، فقد توغل فرسان المقاومة في هذه العمليات حتى أبواب الجزائر العاصمة، وفي منطقة وهران هاجم الخليفة مصطفى بن التهامي القوات الفرنسية في مستغانم في 13 ديسمبر ثم هاجم القوات الفرنسية في أرزيو في 17 ديسمبر، بينما البوحميدي خليفة الأمير على تلمسان هاجم القوات الفرنسية المتمركزة في مسرغين في 23 ديسمبر1839 [31]، كما قام مصطفي بن التهامي خليفة الأمير على معسكر بمحاصرة المركز العسكري الفرنسي بمزغران فيفري 1840 [32].

تنفيـــذا لتوصـــيات الأمـــير القاضـــية بمحاصـــرة الحاميـــات الفرنســـية داخـــل مراكزها[33]،قام الخليفة بن علال بتنظيم قوات المقاومة وتنفيذ الأوامر الموكلة إليه ،فتوجه نحو مدينة "شرشال" التي احتلتها القوات الفرنسية بقيادة الماريشال "فالي" مابين 15مارس إلى 21مارس 1840م[34]، فحاصر القوات الفرنسية بها ، وقد كان الجنرال فالي قد أبقى بها العقيد كافينياك ليتولى عملية الدفاع عنها،ليتوجه هو لاحتلال مدينة المدية في 25مارس 1840م[35].

لما سمع الأمير بتحركات فالي لاحتلال المدية، بدأ يعمل على وضع خطة لمواجهة القوات الفرنسية المتجهة نحو المدية، وكانت هذه الخطة تقضي بقطع طريق الجزائر المدية عند ممر موازيا، واستدراج الفرنسيين إلى أودية هذا الممر ومحاصرتهم فيها،بنشر مجموعة كبيرة من المجاهدين على مرتفعات موزايا[36].

تنفيذا لتعليمات الأمير عبد القادر القاضية بأخذ الاحتياطات اللازمة لمواجهة القوات الفرنسية، انطلق ابن علال إلى ضواحي غابة كرازة– العفرون وفيها قسم قواته إلى قسمين تمركز القسم الأول منها في وادي دجر، أما القسم الثاني فأخذ مواقعه على المنحدرات الفاصلة بين بحيرة حيلولة وحوض وادي دجر، وكان على ابن علال وقف الزحف الفرنسي أو تأخيره على الأقل، وفي حال عجزه عن الصمود في وجه الهجوم الفرنسي، كان عليه الانسحاب فورا والالتحاق بباقي الوحدات المنتشرة على مرتفعات مضيق موزايا والتي كانت تحت إمرة الأمير عبد القادر[37].

بدأت مجريات المعركة في صباح يوم 27 أفريل 1840 حيث قام فرسان بن علال المتمركزين في وادي دجر بمهاجمة ميسرة الجيش الفرنسي فاختلطت قواته بعضها ببعض نتيجة لهذا الهجوم المفاجئ، وحاول ابن علال استغلال الوضع بالقيام بهجوم على جميع الأرتال الفرنسية، إلا أن فالي أمر قواته بشن هجوم شامل علي جميع مواقع قوات ابن

علال[38]، فقام الدوق دورليان بهجوم معاكس بعد أن استفاد من الغطاء الذي وفرته له المدفعية،فتراجعت قوات ابن علال إلى الضفة اليسرى لوادي دجر، وهناك قام ابن علال بترتيب صفوف قواته[39]، وأمر بشن هجوم آخر على القوات الفرنسية غير أن المدفعية الفرنسية تصدت لهذا الهجوم بقصف شديد مما حتم على قوات المقاومة التراجع لجمع شتاتها، ثم القيام بهجوم على مؤخرة القوات الفرنسية بغية قطع خطوط مواصلاتها، الا أن تلك القوات استنجدت بقوات الزواف وعناصر من الكتيبة الإفريقية، فأدى ذلك الى زيادة عددية مكنتها من صد هجوم المجاهدين، وتقدمت بعد ذلك القوات الفرنسية لتحتل قمة العفرون، بينما اجتازت قوات ابن علال وادي رومي والتحقت بقوات المقاومة التي كانت تحت قيادة الأمير في مرتفعات مضيق موازيا[40].

دامت هذه المعركة يوما كاملا تمكنت فيه القوات الفرنسية من احتلال قمة العفرون بعد أن تكبدت 6 قتلى من بينهم العقيد ميلتجين، أما قوات ابن علال فلقد تمكنت من تحقيق هدفها المتمثل في عرقلة تقدم القوات الفرنسية دون أن تتعرض لخسائر كبيرة[41]، ومما يلاحظ في هذه المعركة فطنة الخليفة بن علال في تسيير مجريات المعركة لصالح قوات المقاومة الوطنية دون أن يعرضها لخسائر كبيرة .

ب– معركة موزاية 12 ماي 1840م :

كانت معركة غابة الكرازة –العفرون– بداية المجابهة بين قوات المقاومة تحت إمرة الأمير وخليفته بن علال والقوات الفرنسية بقيادة الماريشال فالي أثناء تقدم الفرنسيين نحو المدية، ولما كانت القوات الفرنسية تستعد للسير نحو المدية بعد معركة غابة كرازة كان الأمير في هذه الأثناء وقبلها على مرتفعات مضيق موازية يتهيأ لوقف الزحف الفرنسي، حيث عمل على تعزيز دفاعات قوات المقاومة على مرتفعات مضيق

موازيا، أما ابن علال فقد تمركز مع فرسانه بعد مشاورته للامير فأمرهم بضواحي حوش موزايا، وكانت مهمته قطع طريق الرجعة على القوات الفرنسية، أما بقية الفرسان فتجمعوا تحت قيادة الأمير بالقرب من قمة جبل أنفوس، وكانت مهمتها مهاجمة أرتال الجيش الفرنسي[42].

هاجمت قوات المقاومة الوطنية في12 ماي 1840م بقيادة الأمير عبد القادر والخليفة بن علال القوات الفرنسية بمرتفع الغذاء غير أن القوات الفرنسية كثفت عملية القصف المدفعي ضد مواقع قوات المقاومة الوطنية التي قاتلت ببسالة حتى نفذت منها الذخيرة فاستمرت في القتال بالسلاح الأبيض وهو ما يبين قيمة العزيمة التي كانت تحذوا المجاهدين[43].

كانت الخسائر الفرنسية في هذه المعركة جسيمة حيث قتل منها حوالي 84 جندي وضابط وجرح 152 عسكري من بينهم الجنرال شرام والمقدم عزيون والجنرال روميني ومساعده الجنرال مارابو[44]، وبذلك أثبتت قوات المقاومة تحت إمرة الأمير والخليفة بن علال على قوة المقاومة، كما بينت مدى ارتباط سكان المنطقة بأرضهم والتزامهم بمواجهة قوات المحتل مهما كلفهم ذلك من ثمن.

ج– معركة غابة الزيتون 20 ماي 1840م :

بعد نهاية معركة موزاية في 12ماي 1840م تراجعت قوات المقاومة بقيادة الأمير عبد القادر وخليفته بن علال نحو جنوب موزاية[45] لمواجهة تقدم جيش الاحتلال الفرنسي بغابة الزيتون، وبالرغم من المشاكل التي كانت تعاني منها قوات المقاومة كقلة المؤونة والذخيرة الحربية والعياء الكبير الذي أصاب المجاهدين جراء قطع مسافات طويلة في ظرف زمني قصير، هاجم المجاهدون القوات الفرنسية فعمت الفوضى صفوف الجيش الفرنسي، فاستعمل المجاهدون الأسلحة البيضاء في القتال للحفاظ على ذخيرتهم،

وتمكنت قوات المقاومة من السيطرة على المرتفعات المحاذية لوادي الهربان[46]، وبعد سيطرة القوات الوطنية على مجريات المعركة قام الجنرال فالي بزيادة القصف المدفعي ضد مواقع المجاهدين، وقد استمر القتال حتى الليل، ونتيجة للوضع القائم أمر الأمير عبد القادر المجاهدين بالتراجع بانتظام من أرض المعركة، بينما توجه جيش الاحتلال الفرنسي بقيادة الجنرال فالي نحو مدينة البليدة التي دخلتها في 22 ماي[47].

تكبدت قوات الاحتلال الفرنسي في هذه المعركة خسائر كبيرة تمثلت في مقتل 40 جندي وضابط وجرح 212 آخرين [48]، وبهذا أظهرت قوات المقاومة استماتة كبيرة في التصدي للتوسع الفرنسي نحو المدن الداخلية ،فالنزهة التي كان يحلم بها الفرنسيين بعد احتلالهم مدينة الجزائر أصبحت في خبر كان .

5- أوضاع المنطقة من 1840-1843:

بادرت السلطات الفرنسية الى استعمال مختلف الأساليب القمعية لتوسيع دائرة احتلال الجزائر خصوصا في منطقة حوض الشلف لما لها من أهمية إستراتيجية، وأضافت الى تلك الطرق عمدت الى استعمال الحرب النفسية والعمل على إشاعة الفرقة بين الشعب الجزائري وفي هذا الإطار بادر الجنرال بيجو الى العمل على استمالة خلفاء الامير عبد القادر باستخدام الترغيب في المال والسلطة، وفي هذا الاطار نجده قد كلف اليهودي" نيكولا مانوتشي" سنة 1841م أمر التفاوض مع خلفاء المقاطعات الوسطى للتخلي عن المقومة مقابل امتيازات تقدمها لهم السلطات الفرنسية فعرض هذا الأخير على" محمد بن علال " مبلغ مالي قدره 100000 فرنك[49]، فكان رد الخليفة بن علال عن ذلك كما يلي:" ليكن في علمك أنني أحكم وأحارب ضمن منطقة تمتد من جبل الدخلة إلى وادي الفضة وماذا تعرض لي مقابل الحكم الذي أمارسه في خدمة الوطن أراك تعرض أملاكي التي سأسترجعها بمقاومتكم مثلما فقدته"[50].

كان لهذا الالتزام من قبل الخليفة بن علال بالمقاومة تعبيرا عن ما كان يدور في خلد أغلب سكان المنطقة، فعمل بيجو[51] المعين في سنة 1841م حاكما عاما على الجزائر على استعمال أقصى الوسائل القمعية لإخضاع المناطق الخارجة عن سلطة الفرنسية، فعمد الى استخدام فيالق عسكرية كانت تنشر الموت والخراب في المناطق التي تمر بها، مما أدى إلى إضعاف المقاومة نتيجة لسقوط أغلب المدن واعلان الكثير من القبائل خضوعها لسلطة الفرنسيين، فقد شهدت سنة 1942م حملات عسكرية قمعية ضد قبائل المنطقة تمكنت من إخضاع اغلبها للسلطات الفرنسية فقد أخضعت قبيلة بني زروال بعدما هاجمتها القوات الفرنسية بقيادة الجنرال بيجو في 14ماي 1842م حيث قامت تلك القوات الفرنسية بأسر230 شخص ونهب 2500رأس غنم[52]، كما قام القائد" بيسون" يوم 6-7 جوان 1842 بمهاجمة قبيلة "بني مناصر" ونهبت منها 18000رأس" بقر وغنم[53]، وفي 09 جوان1842م توجهت القوات الفرنسية بقيادة الجنرال بيجو بتعداد 9000 جندي بعدما قسمت إلى فرقتين، لتزحف على قبائل" بني مناد و" سوماطة" و"بولوان"واندفعت القوات اتجاههم من شمال جبال الأطلس وسهول الشلف، فنهبت المنازل والقي القبض على عدد كبير من السكان، كما كثفت القوات الفرنسية حملاتها على المناطق الواقعة بين" القليعة "وبرج الأربعاء وحوش موزاية" وصولا الى الساحل البحري، ومن مدينة البليدة وملیانة ففي الفترة الممتدة مابين 13ماي و 16 ماي 1842، تم الهجوم على قبيلة" حجوط" وأسر 420 شخص ونهب 1190رأس بقر 1800رأس خروف و150حصانا والأسلحة والسروج وتم تجنيد 140شخصا من قبيلة حجوط[54]، كما قامت قبيلة" جندل" بطلب الأمان من العقيد "كومان" في 17 جوان 1842بزعامة "بوعلام شقيق آغا جندل الذي انضم الى صفوف القوات الفرنسية فرافق العقيد الفرنسي بـ : 100 فارس وانضم إليهم الباش آغا"بوعلام بن شريفة" مع

قواته و"أخ الآغا سي جلول بن فراح" واستسلمت على يد هذا الأخير قبيلة "بني عياد" في 7 جويلية 1842م، وهو ما أعطى دعم كبير للقوات الفرنسية بقيادة العقيد "كورت" الذي قام بمهاجمة ونهب القوات الجزائرية التي كانت متجهة بقيادة الخليفة محمد بن علال الى منطقة"بوغار" وبمنطقة" واد وسال"، حيث جرت معركة شرسة بين الطرفين استشهد خلالها حوالي 40 فارسا وتم 3000 أسير ونهب 1500 جمل و300 حصان و1500 رأس غنم، أما خسائر الجانب الفرنسي فتمثلت في مقتل 5 جنود وجرح 16 آخرين، وقد كان لهذه المواجهة انعكاسات شديدة على مستقبل قوات الخليفة بالمقاطعة[55].

6- استشهاد الخليفة بن علال:

شهد خريف 1842م، معارك ضارية بين قوات المقاومة والعدو خصوصا ناحية الونشريس وحمزة والمناطق المحيطة بمستغانم والمدية ومعسكر، وقد أدى ذلك إلى اخضاع السكان بالقوة والإرهاب[56]، ولذلك نجد ان تلك الحملات الفرنسية القمعية ضد قوات المقاومة قد اضطرت الخليفة بن علال الى التراجع باتجاه الصحراء ،وذلك بعدما استسلمت أغلب قبائل المنطقة، وأصبحت قوات المقاومة عرضة لملاحقة القوات الفرنسية، حيث تعرضت لهجوم قوات الجنرال"شونقاربي" أدى إلى مشادات عنيفة بين الطرفين أدت الى مقتل 50 جندي وجرح 11 آخرين، أما خسائر قوات الخليفة بن علال فكانت كبيرة وتمثلت في أسر 3000 فرد فيهم النساء والاطفال والشيوخ كما تم نهب 1500 جمل و300 حصان و40000 رأس غنم[57]، وهو ما زاد في بؤس قوات المقاومة، فانسحبت قوات المقاومة المتبقية والتي كانت تضم الثير من العائلات إلى منطقة "طاقين"، وقد عانت تلك القافلة تحت امرة الخليفة بن علال خلال ذلك من شدة العطش ونقص المؤونة، لذا سعى الخليفة لإنقاذهم فقام مع بعض فرسانه برجوع

إلى التل للبحث عن المطامير التي وجدها قد أفرغت بعد الحملة التي شنتها القوات الفرنسية بالمنطقة بقيادة الجنرال" شونقاربي"، فتوجه الخليفة نحو قبائل "السرسو" التي كانت موالية لفرنسا، فاستدرجت القوات التي كانت معه وتمت محاصرته ونزعت أسلحتهم بينما نجا الخليفة بنفسه و8 من فرسانه فقط[58].

وفي شهر أكتوبر 1843م التحق الخليفة بن علال بالأمير عبد القادر الذي كان متجها الى منطقة الأنجاد، غير أن القوات الفرنسية بقيادة الجنرال تمبور تفطنت لتحركات قوات المقاومة فجهزت قوات تعدادها 800 جندي من المشاة وفرسان وثلاثة مدافع ميدان، تتبعت أثار قوات الخليفة يومي 09 و 10 نوفمبر، وعندما كانت قوات الخليفة بن علال تأخذ قسطا من الراحة جراء التعب الذي أصابها بمنطقة زويلين،هوجمت صباح يوم 11 نوفمبر من طرف القوات الفرنسية وتم محاصرتها، فأسرع الخليفة لتدارك الوضع غير أنه سرعان ما أدرك أنه سيخوض معركة غير متكافئة فاتخذ مع قواته موقف دفاعي، ورغم تأزم الوضع لم ينسحب الخليفة من ميدان القتال، وخلال ذلك تقدم الضابط "كاسانيول "مع ثلاثة قناصة من الخليفة ظنا منهم أنه لا يستطيع متابعة القتال، لكنه قام بإطلاق النار على الجندي الأول فأسقطه قتيلا، وحاول الضابط " كاسانيول" ضربه بالسيف لكنه أطلق النار مرة ثانية على إحدى قوائم الحصان فأسقط، وقتل الجندي الثالث بطلقة نار من مسدسه وأخرج سيفه لمقاتلة الجندي الأخير لكن هذا الأخير كان قد أطلق النار على الخليفة في صدره فسقط شهيدا، وكان من نتائج هذه استشهاد 404 مقاوم وأسر360 فرد[59]، وقد قامت القوات الفرنسية بالتنكيل بجثة الخليفة بن علال الذي طالما عانت القوات الفرنسية وأرسلت جثته إلى وهران، وقد تأثر الأمير لاستشهاد الخليفة تأثرا كبيرا واعتبر ذلك فاجعة ألمة بالمجاهدين[60]، غير أن روح المقاومة التي غرسها الخليفة بن علال لدى سكان منطقة

الشلف سرعان ما سوف تتجدد مرة أخرى بالرغم من المآسي الكبيرة التي عانوا منها جراء سياسية الأرض المحروقة التي طبقت من قبل جنرالات فرنسا غلى نطاق واسع بالمنطقة.

7- بداية مقاومة بومعزة:

شهدت سنة 1843م خسارة كارثية بالنسبة للمقاومة وهي سقوط زمالة الامير عبد القادر في يد العدو في 16 ماي 1843م، حيث قام الدوك دومال بمفاجئة الزمالة التي كان أغلب سكانها من النساء والأطفال، وتذكر التقارير أن عدد قتلى هذه الواقعة بلغ 300 شهيدا أخذوا غدرا، كما تم اسر حوالي 3000 جزائري آخرين، كما تم في هذه السنة إنشاء مدينة الأصنام (الشلف)لتدعيم الحضور الاستعماري وتيسير خط المواصلات بين الجزائر ومستغانم ووهران، كما احتلوا مدينة تنس آخر مرسى في يد الأمير[61].

واصل العدو سياسة الأرض المحروقة والاضطهاد الجماعي والإرهاب مما أدى إلى ثورات شعبية أخرى، خصوصا بمنطقة حوض الشلف حيث أصبح الناس يتوقون لشخصية تقودهم للنصر على العدو، وخلال هذه الظروف ظهر الثائر محمد بن عبد الله المدعوا بومعزة الذي تزعم المقاومة المسلحة بمنطقة جبال الونشريس وزكار والظهرة وحوض الشلف لمدة أربع سنوات[62].

ينتمي وداح بن محمد بن عبد الله الى قبيلة أولاد خويدم في حوض الشلف، وتعود أصول أجداده إلى تارودانت بالمغرب الأقصى،وشب في وسط ديني لارتباط اهله بالطريقة الدرقاوية الطيبية[63]، ويذكر البعض أنه تجند في صفوف الجيش النظامي الذي أنشأه الامير عبد القادر، الا أنه بعد تفريق كتيبته انسحب الى الونشريس ليقضي حياته في التامل والصلاة، وكان خلال ذلك يقتسم حياته مع معزة ومن هنا اسمه، وقد

أثار بزهده وتعبده أنظار الناس فاعتبروه شريفا وصالحا وسموه المهدي المنتظر الذي سينتصر للإسلام ويهزم الكفار[64].

كانت الظروف في نهاية عام 1944م تنبئ باندلاع ثورة عارمة أمام تمادي السلطات الفرنسية في استخدام الاضطهاد و العنف والإرهاب ضد الجزائريين[65]، فاستغل بومعزة الوضع واخذ يدعوا القبائل الى تزويده بالرجال وان يتحضروا للجهاد بالسلاح والصوم والصلاة، وكانت شهرته تزداد كلما قام بزيارة القبائل، فحتى تلك القبائل التي كانت خاضعة للفرنسيين كان أعيانها يكتبون اليه ويزودونه بالأخبار سرا[66]، وبسبب نشاطه الدعائي الواسع خلال عام 1844م،جند الماريشال بيجو قوات كبيرة لمواجهته هو وأتباع الأمير عبد القادر، تزعمها الجنرال بورجولي والجنرال ريفو والكولونيل سانت ارنو والكولونيل لاد ميرلوت والكولونيل بيليسي[67].

ومع بداية سنة 1845م بدأت القبائل تزود محمد بن عبد الله بالأسلحة والذخائر والبغال والاحمرة، وتبعا لذلك اخذ ينظم أتباعه فعين الكاتب وجباة المال والشواش والجنود وعين آغوات العسكر وأغوات الخيالة، كما قام بتخصيص أجور شهرية للاغوات حددت ب10دورو شهريا لاغا العساكر و15دورو لاغا الخيالة[68]، ويذكر أحد الضباط الفرنسيين واصفا هؤلاء الرجال قائلا:"رجال خارقون للعادة في الحرب، يرون الفارس على مرأى منظارنا ويتحدثون على بعد فرسخين ويعرفون الدروب المجهولة التي تغطيها الثلوج والضباب الكثيف ويرون ويسمعون عندما لا يرى أحد ولا يسمع شيئا"[69].

استمرت المقاومة المسلحة بالمنطقة بعد ذلك تحت قيادة محمد بن عبد الله الملقب ببومعزة وقد انتشرت شرارة هذه المقاومة بحوض الشلف وجبال الظهرة وجبال الونشريس، وقد استمرت هذه المقاومة من سنة 1844م الى سنة1847م، ومن أهم

المعارك التي شهدتها منطقة الشلف خلال هذه الفترة نذكر معركة عين مران في 14 أفريل 1845 ومعركة ثنية الحد في 18 أفريل 1845م، ومن خلال ذلك يمكن القول بأن هذه الاحداث التاريخية تعكس مدى الدور الذي لعبه سكان منطقة الشلف في مواجهة المشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر.

الهوامش:

1. Julien .ch.a ,histoire de l'Algérie contemporaine :conquête et colonisation (1827- 1871) ,p .u.f,Paris ,1964,P.61.

2. الماريشال دي بورمون: ولد سنة 1773م، بمدينة ماين، التحق بالمدرسة العسكرية بسوارار، شارك في حروب نابليون ،وتولي قيادة الحملة الفرنسية على الجزائر في سنة 1830،وفي أوت 1830عزل من منصبه ليعود إلى فرنسا حيث توفي في سنة1846انظر:

Henry D, Les conquérants de l'Algérie (1830-1852) Berger-Levrault, éd., Paris, 1930, P. 10.

3. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992،ص 25-49.

4. Lapène. M., Tableau historique de la province d'Oran (depuis le départ des espagnols en 1792 jusqu'à l'élévation d'Abd-el-kader) , Lamort, Metz, 1842 ,P26.

5. Cour A, L'occupation Marocaine de Tlemcen (Septembre-1830–Janvier 1836), Revue Africaine, OPU , N° 52, Alger, 1908,PP32-42

6. Cour.A, op-cit, P.35.

7. Julien.ch.a, op-cit, P.71.

8. العربي إسماعيل، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1982، ص 33.

9. محمد الحاج صادق، مليانة ووليها سيدي احمد بن يوسف،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،1964، ص40.

10. Daumas E, Correspondances du capitaine Daumas consul à Mascara1837-1839 éd. Jourdan, Paris, 1921. P156.

11. الحاج صادق محمد، المرجع السابق،ص*40-41*

12. نفسه ،ص42

13. نفسه ،ص43.

14. نظرا للمنزلة التي كان يحظى بها الخليفة محمد بن محي الدين الصغير بين قبائل وعشائر المنطقة ،عرض عليه" برتزان " منصب آغا العرب ،فقبل محي الدين باقتراح "برتيزان" بعد ان اشترط على القائد الفرنسي بقاء المسلمين و الفرنسيين كل في مكانه، غير ان هذا المنصب لم يكن ليجعله يتغاضى عن تلك الهمجية التي كانت تقوم بها القوات الفرنسية ضد بني جلدته فاستقال من منصبه هذا في شهر أوت 1832م، وكتب لروفيقوا منددا بتلك الانتهاكات التي كانت تطول الجزائريين كإبادة قبيلة العوفية بناحية "الحراش" بقرار من "روفيقو" الذي اشرف على المجزرة بنفسه في ربيع 1832م، وبعد ذلك أصبح محي الدين يشكل خطرا على السلطات الفرنسية فأصبحت تراقبه وتضيق على أقربائه وأتباعه فلجأ إلى قبيلة" بني مناد" وهناك بدأ يدعوا إلى الجهاد ومنع كل معاملة مع الكفار فقطع عنهم ابتياع الخيول والصوف. انظر: محمد الحاج صادق، المرجع السابق ،ص137

15. نفسه، ص138.

16. Clauzel.B ,Correspondances du maréchal Clauzel, éd., (Larousse,Paris 1949, P35.

17. Ibid,P82

18. Ibid,P106.

19. Rousset.C , la conquète d'Alger , imprmeurs–éditeurs .E.plonetcie , Paris , 1880 , p*672*

20. محمد الحاج صادق، المرجع السابق ،ص43.

21. Changargnier T, Mémoire du général Changargnier, ed, Levrault, Paris, 1930., P.18.

22. محمد الحاج صادق، المرجع السابق،ص44.

23. Changargnier T,Op-cit,P64-65

24. يقع حصن تازة على مسافة 65 كلم جنوب شرق مليانة، كان يحتوي على مجموعة من مخازن القمح والحديد والنحاس والرصاص والكبريت، وبه ورشة لصناعة الأسلحة والصيانة ومطحنتان ومصنع للبرانس ومصهرة للحديد. أنظر:تشرشل شارل هنري ، حياة الأمير عبد القادر، تر: أبو القاسم سعد الله، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2004، ص139.

25. نفسه،ص140

26. Yver G,Lettres de Ben Allal au Marechal Valée, R.A, N°58 ,1914,P07 -19

27. أديب حرب، المرجع السابق، جزء02، ص162.

28. تشرشل، المصدر السابق، ص238.

29. Emrit M , L'Algérie à l'époque d'Abd elkader, éd. Larousse, Paris, 1951, p. 148.

30. محمد بن عبد القادر، المصدر السابق، ص365.

31. أديب حرب، مرجع سابق، جزء02، ص243.

32. تشرشل،المصدر السابق، ص243.

33. Emrit M Op-cit,P148

34. Daumas E, , op.cit, P 143

35. Bellemare A, Abd-El-Kader sa vie politique et militaire, Ed Bouchene, France,2003, P.27,

36. العربي اسماعيل، المرجع السابق، ص203.

37. Azan P,L'émir Abdelkader1808-1883 du fanatisme musulman au patriotisme Français, éd. Hachette, Paris, 1929, P164.

38. Ibid, p.165.

39. أديب حرب، مرجع سابق، جزء02، ص280.

40. Azan, op-cit, p.165.

41. أديب حرب، مرجع نفسه، جزء02، ص283.

42. نفسه، ص285.

43. Azan, op-cit, p.165

44. تشرشل، المصدر السابق، ص243.

45. حرب أديب، المرجع السابق، ج .2 ، ص. 306 – 308.

46. نفسه،ص 310

47. نفسه،ص 311

48. Azan P, op-cit, p.166

49. محمد بن عبد الرحمن الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام، ج 4، دار الثقافة، ط4، بيروت،1980، ص. 258.

50. Changargnier. T, op.cit, p. 219.

51. توماس روبار بيجو Duc Thomas Robert Bugeaud de la Pionnerie: ولد بتاريخ 15 ديسمبر 1775 في مقاطعة لادورانتي، التحق بالجيس في ماي 1804. حارب في إسبانيا لمدة 06 سنوات. ترك الجيش برتبة عميد في منتصف ماي 1815، ليعود إلى الخدمة

في 08 سبتمبر 1830. حارب قوات المقاومة الجزائرية تحت راية الأمير عبد القادر في معركة السكاك في 06 جويلية 1836، رقي بعدها إلى رتبة جنرال في أوت 1836، ثم فاوض الأمير عبد القادر على إتفاقية التافنا في 30 ماي 1837، و في أوائل 1841 عين حاكما عاما للجزائر حتى أواخر 1847، عاد إلى فرنسا ليصاب بالكوليرا في 06 جوان 1849، و يموت بها . أديب حرب ، المرجع السابق، ج1، ص286.

52. Demont R., Histoire de la conquête de l'Algérie de 1830 -1847, éd. Arel, Paris, 1847, P 182 , T 2,

53. Ibid., p. 189.

54. Ibid., p. 242.

55. Ibid., PP. 246- 248.

56. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992، ص266.

57. Demont R., op-cit, PP.192- 193

58. Ibid., P195

59. Ibid., PP *267-266*

60. De Mintimpry, Souvenirs d'un officier d'état major histoire de l'établissement de la domination française dans la Province d'Oran, éd. Quantin, Paris, 1886, p. 179.

61. أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص267.

62. يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر، 1999، ص157.

63. نفسه، ص158.

64. محفوظ قداش ، جزائر الجزائريين –تاريخ الجزائر –1830-1954،المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر،2008، ص107.

65. أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص*269*.

66. محفوظ قداش ، المرجع السابق، ص109.

67. يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص*158* .

68. نفسه، ص158.

69. محفوظ قداش، المرجع السابق، ص109.